غـــدن
Ghadan

هـــــل يمكـــــن للمشاركـــــــة المجتمعيـــــة أن تحسن حياتنـا؟

بسم الله الرحمن الرحيم

{قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا (94) قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا (95)}

سورة الكهف

مكان لكل الأحلام الكبيرة

كان طفلاً صغيراً بأحلام كبيرة. يحلم في أن يمتلك ملعباً وحديقة تجمع كل أصدقائه وأبناء الجيران فيتنافسون في لعب الكرة، ويقيمون دوريهم الخاص. كان يحلم. وفي كل مرة ينزعه من أحلامه صوت تكسر آنية جديدة، يتبعه صراخ أمه ونهيها إياه عن لعب الكرة في البيت.

لكن أين سيلعب والبيت لا يتسع للكرة والشارع غير آمن؟

لم يمض وقت حتى جاءت عزوة مع أمانة الرياض، وبتعاون مع مجموعة من المقاولين قرروا إنشاء حديقة في حي الطفل. في اليوم الأول أعلنوا عقد ورشة مع سكان الحي ليستمعوا إلى آمالهم وتطلعاتهم ويشرحوا لهم سير المشروع، كان الطفل أول المشاركين. وفي كل مرة يسأل المقاولون عن عناصر الحديقة، يصرخ الطفل: ملعب ملعب.

يوماً بعد يوم حفظ الطفل مع رفاقه تفاصيل البناء وشهدوا شكل الحديقة وهو يتحول من ورقة إلى حقيقة. وفي ليلة الافتتاح لم ينم وهو يفكر في اختيار اسم لحديقته. ليشارك في نشاط تسمية الحديقة المنتظر.

ومنذ الافتتاح وحتى يومنا هذا، وهو يلعب في ملعب الحديقة، ويسجل الأهداف. وفي نهاية اليوم ينظف الحديقة مع رفاقه. لأنها حديقتهم التي يعرفون صغيرها وكبيرها وشاركوا في إنشائها.

هذا الطفل ليس الوحيد، وهذه المبادرة ليست فريدة من نوعها. هناك توجه عالمي ووطني في إشراك المجتمع بكافة أطيافه مع المؤسسات الحكومية ومؤسسات القطاع الخاص وغير الربحي.

وفي هذه المقالة سنحدثك عما فعلته عزوة وما ساهم فيه الطفل. وسنخبرك عنك .. عن دورك. وعن المشاركة المجتمعية التي تشمل كل ذلك.

2020 جائحة كورونا

أدركت منظمة الصحة العالمية مؤخراً بأن التواصل ضروري في أوقات الأزمات بين الخبراء والحكومات والناس، لأن التواصل الفعال يحسن استجابة الناس للأزمات ويساعد في مواجهة حالات الطوارئ. (مرجع بحث إيطاليا)

وقد تأكد هذا المعنى في تجربة المملكة العربية السعودية أثناء مواجهة الجائحة، فكورونا نهاية 2019م كانت مجرد خبر يتناقله الناس عن الصين تلك الدولة البعيدة حتى مطلع الشهر الثالث من عام 2020م ومع أول حالات كورونا رُصدت في المملكة، تشكلت لجنة خاصة لمواجهة الجائحة، وقد عملت اللجنة على إشراك المجتمع إشراكاً حقيقياً ساهم في التزام الجميع بالحجر الصحي، والتباعد، وتلقي اللقاح، وارتداء الكمامة.

وكل هذه الأمور لم يكن سهلاً أن تصير ثقافة جماعية لولا التغيير الاجتماعي الذي صنعته المملكة بالتعاون بين المؤسسات الحكومية وكافة أطياف المجتمع ومؤسساته. بدءاً من المؤتمر الصحفي اليومي والثابت الذي كان يشرك الجميع ويعلمهم بواقع الحال مما يضع الجميع في مستوى واحد لفهم الواقع ومقدار تعقيد المرحلة، ففي بداية أيام الجائحة كانت المؤتمرات تعزز من حقيقة وجود الجائحة وتبرر للحجر الصحي، ثم صارت تساعد الناس بعد تقليل القيود إلى الالتزام بالقوانين وارتداء الكمامة وتقليل التجمعات؛ لأنه إن لم يلتزم فرد بذلك فإن مؤشر الأرقام قد يتزايد اليوم التالي في المؤتمر الصحفي، مما جعل أمر التخلص من الأزمة مسؤولية مشتركة بين المؤسسات الحكومية وأطياف المجتمع.

2020 جائحة كورونا

لم تكن هذه هي الحالة الوحيدة التي شارك فيها المجتمع في مواجهة الجائحة، بل كل الخطوات التي مرت فيها المملكة لمواجهة الخطر. إذ كان هناك تعاضد ما بين المؤسسات الحكومية والمجتمع ساهما في إنجاح تجربة المملكة. وحسب التقرير الذي نشرته وزارة الصحة حول كورونا ذُكر: "لاقت الإجراءات المتخذة في التواصل أثناء المخاطر وإشراك المجتمع بنبرة إيجابية من المجتمع، فاستشعر مرتادو مواقع التواصل الاجتماعي أهمية إظهار التكاتف وتسيير الحملات للحد من انتشار كوفيد-19 ومع تواصل ارتفاع حالات الإصابات، ارتفعت استجابة المجتمع للتدابير الوقائية الاحترازية، وأطلق سعوديون وسم (#كلنا_مسؤول) على منصة × كدور مجتمعي في التصدي للجائحة"

قد يخطر على بالك الكثير من المواقف التي عبرت عن هذه المشاركة والروح الجماعية التي ظهرت وقت الأزمات وبعض المواقف على صغرها كانت تعبيراً حقيقياً عن الاستجابة والتكاتف وخرجت من الجميع بصوت واحد منها مبادرة صغيرة من رواد إكس دعت إلى ترديد النشيد الوطني من نوافذ البيوت. في ذلك اليوم لم يخترق صمت الشوارع إلا صوت واحد في كل حي يقول: سارعي.

لكن هل المشاركة المجتمعية مفهوم حديث أو غربي؟

ذو القرنيين

إن أمر المشاركة المجتمعية ليس دخيلاً أو حديثاً، بل هو مفهوم أصيل قامت عليه الحضارات، فالمجتمعات قديماً كانت تحيا بهذا التكافل وبدونه تختفي أو تنقرض. والسيرة النبوية والقرآن الكريم شاهدان على كثير من هذه المواقف، ونحن في كل يوم جمعة نقرأ سورة الكهف ونمر على قصة ذي القرنين فكيف كانت هذه القصة شاهداً على معنى المشاركة المجتمعية؟

لنبدأ من البداية كان ذو القرنين رجلاً قوياً، مرّ على أهل قرية مستضعفين فشكوا له حالهم وما يكابدونه من يأجوج ومأجوج. كان بإمكان ذي القرنين أن يتجاهلهم أو يواجه المشكلة وحده، لكنه اختار خياراً في الوسط، أن يشركهم في مواجهة المشكلة. فقال لهم: "أعينوني بقوة أجعل بينكم وبينهم ردما". ثم جاء الطلب واضحاً: "آتوني زبر الحديد".

في هذه الآيات ظهر تداول واضح وتعاون ما بين أدوار السلطة التي يمثلها ذو القرنين وأدوار المجتمع التي يمثلها أهل القرية. كان ذو القرنين مصدر الحكمة والتخطيط وكان أهل القرية مصدر العمل والمساهمة.

بذلك فإن ذي القرنين لم يساعدهم فقط، بل أشركهم في ذلك ومكنهم من استخدام الحديد.

في الشواهد التي عُرضت سابقاً تجلت معانٍ عدة لما تعنيه المشاركة المجتمعية، فهي قد تكون وسيلة لتحسين الحياة أو للخروج من مأزق أو للتعبير عن روح المجتمع أمام العالم.

وكل ذلك يؤدي إلى أمرين: مجتمع متمكن لا يعتمد على الآخرين لمواجهة مشاكله، وحياة طيبة حسنة.

وإليك تفصيل كل ذلك.

لماذا نهتم بالمجتمع؟

عن النُّعْمانِ بنِ بَشيرٍ رضي اللَّه عنهما، عن النبيِّ ﷺ قالَ: {مَثَلُ القَائِمِ في حُدودِ اللَّه، والْوَاقِعِ فِيهَا كَمَثَلِ قومٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سفينةٍ، فصارَ بعضُهم أعلاهَا، وبعضُهم أسفلَها، وكانَ الذينَ في أسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ الماءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ، فَقَالُوا: لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا في نَصيبِنا خَرْقًا وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا. فَإِنْ تَرَكُوهُمْ وَمَا أرادُوا هَلكُوا جَمِيعًا، وإِنْ أَخَذُوا عَلَى أيْدِيهِم نَجَوْا ونَجَوْا جَمِيعًا} رواهُ البخاري.

كل المجتمعات تشبه السفينة التي تخوض البحر لتصل إلى الميناء، وفي كل المجتمعات تتفاوت الطبقات بين السلطة والمجتمع وبين المجتمع أنفسهم إلا أن الثابت الوحيد أن نجاة هذه السفينة يكون بتكاتف الجميع.

ولتبسيط الفكرة فإن كل فرد هو عضو في المجتمع يتأثر به ويؤثر عليه، ولنجاة المجتمع ولنمائه لا بد أن يفكر الجميع في مصلحة الجميع. لأن أهل السفينة لو خرقوا السفينة ليرتاحوا من عناء الصعود والنزول فإنهم سيرتاحون نعم.. لكن للأبد.

في علم الاجتماع يُنظر للذات الفردية على أنها متصلة بذاتها الاجتماعية، بل إن الذات التي لا تنتمي لمجتمعات هي ذوات غريبة ومنبوذة. فالفرد "يكتمل اجتماعياً وثقافياً في صلب أطر مرجعية مادية ورمزية جاهزة من شأنها أن تمنحه عناصر شخصيته الأساسية"

وخلاصة الأمر حسب جورج ميد "الذات هي في جوهرها بنية اجتماعية، تتكون في تجربة اجتماعية". لذلك عندما نهتم بالمجتمع فإننا نهتم بالذات الإنسانية وبتهيئة البيئة التي تنمو فيها وتكتسب خبراتها الأولى، ومرجعيتها الدينية والثقافية، وعلاقاتها ولغتها التي تطور بها ومعها أفكارها تجاه العالم والناس، ومتى ما اختار الناس الانفصال عن المجتمع ونبذه فإنهم بذلك يختارون التفكك واللامبالاة والحرمان من جودة الحياة. ففي كورونا مثلاً لو اختار أحدهم عدم الاكتراث ورفض اتباع القوانين فإنه قد يؤذي غيره. في المحصلة مهما حاول الإنسان أن ينفصل ولا يكترث فإن تأثير ذلك عليه أكبر مما يتصور. ويكفيه خسارة رأس ماله الاجتماعي الذي عبره قد يجد عملاً يكفيه أو يتزوج بمن يناسبه أو يقيم في بيت يقيه الحر والبرد.

وبالإشارة إلى فكرة رأس المال الاجتماعي فإننا نقصد بها الموارد الفعلية والمحتملة التي يكسبها الفرد من وجوده داخل مجتمعات.

فالمجتمعات تتفاعل مع بعضها وتساعد بعضها بعضاً. وأحياناً فإن تجارب هذه المجتمعات المتراكمة تساعدك على الوصول للنجاح مثلاً دون المرور بتحديات السابقين. لنفترض أنك تملك علاقات مع أشخاص يملكون مشاريع ناجحة، وقررت فتح مشروع استيراد بضاعة ما.

هناك تحديات خاصة بها الآخرون لا يمكنك تجاوزها دون مشورتهم وسؤالهم وكلما كانت شبكة علاقاتك قوية ومتنوعة، كانت أقدر على تقديم الدعم لك والنصح حين تحتاج إليه.

ثم إذا ما فتحت المشروع فإن الداعمين لك سيبدؤون عادة من دائرتك الشخصية. فتخيل لو كانت دائرتك ضيقة أو متزعزعة كيف يمكن للمشروع أن ينجح في بداياته؟

إن رأس المال الاجتماعي يبدأ معك منذ طفولتك بدعم الوالدين والأقربين ثم يتسع ويكبر بناء على قيمك ونشاطك المجتمعي وتنوع تجاربك التي تمنحك علاقات متجددة ويعتمد على قدرتك في المحافظة على كل ذلك.

والتطوع والمساهمة المجتمعية والسؤال عن الجار وبر الوالدين والعطف على الصغير واحترام الكبير وإفشاء السلام والتبسم وكل هذه السلوكيات البسيطة هي باب مهم من أبواب تنمية رأس المال الاجتماعي.

فقد لا تعرف عن فلان إلا أنه يسلم عليك كلما رآك، ويصلي في المسجد. فتمدحه لوالد الفتاة التي تقدم لخطبتها فيتزوج لثقتهم برأيك ولسلوكه البسيط تجاهك.

وكلما كان رأس مالك الاجتماعي قوياً راسخاً فإنك بذلك تمتلك حائطاً راسخاً بوسعك الاستناد عليه.

وكلما تنوع رأس مالك الاجتماعي كانت تجاربك الذاتية أثرى وقدرتك على فهم ذاتك أقرب مما لو كنت متقوقعاً في دائرة صغيرة لا تساعدك على تحدي نفسك أو اكتشافها.

كل هذه التداخلات بين الفرد والمجتمع تؤكد على أهمية أن يفكر الكل في الكل وأن يحافظوا على بنية اجتماعية قوية تعينهم على تحسين حياتهم.

وهذا هو ما يعنيه الاهتمام بالمجتمع لنحسن حياتنا الشخصية.

ما الذي نعنيه بالمشاركة المجتمعية؟

ربما استخدمنا الكثير من المفردات للتعبير عن الفكرة، لكن ثمة مصطلح جامع يعبر عن التعاون والتكاتف والقيم المشتركة والمساعدة والتطوع وكل الأفكار التي قد تخطر في بالك حينما تفكر في دورك تجاه المجتمع. يُطلق على كل ما سبق مفهوم: المشاركة المجتمعية.

وهو مفهوم واسع يجمع ما بين أدوار الفرد مع مجتمعه وأدوار المؤسسات الحكومية مع المجتمع. وعادة ما يأتي من أعلى إلى أسفل ويمهد لتغييرات اجتماعية تحسن من جودة حياة الناس.

لنعد إلى مثال الطفل، تخيل لو كان إنشاء حديقة يرتبط بأولويات البلديات نفسها. ولا يمكن لأحد أن يقترح وجود حديقة في حيه أو يحلم بامتلاكها ما لم تحدث بتخطيط من الأعلى، وقد تكون الحديقة. لكنها لا تحقق احتياجات أهل الحي.

هل كان الطفل ليجد مكاناً آمناً للعب الكرة في حيه؟ غالباً لا

لكن فكرة وجود برنامج للمشاركة المجتمعية مهمته الربط ما بين المؤسسات الحكومية والقطاع الخاص بكافة خبرائه وأبناء الحي بكل أحلامهم، وكل هذه الممكنات التي تبنتها المؤسسات الحكومية ثم تبناها الفرد فأثر في مجتمعه ساهمت في تحسين بيئة الحي.

إن المشاركة المجتمعية هي سلسلة من الإيمان بأهمية إشراك الأفراد في تحديد حاجاتهم وإطلاعهم على الواقع بتحدياته وصعوباته، بالتالي مد جسور التعاون معهم لتحسين حياتهم، قبل مدة مثلاً "نظم برنامج عزوة للمشاركة المجتمعية، حملة ميدانية لإبلاغ سكان حي ظهرة لبن ببدء أعمال السفلتة في الشوارع، وذلك لضمان إشراك المجتمع وتهيئة السكان مسبقًا لأي تأثيرات مرورية"

تخيل الآن سيناريوهين، الأول: استيقظت في نفس وقتك المعتاد لتذهب إلى عملك لتفاجأ بأزمة مرورية نتيجة بعض الإغلاقات أدت إلى تأخرك عن العمل وتلقيك التقريع والخصم من مرتبك.

وسيناريو آخر: استيقظت أبكر من المعتاد لأنك تعلم بأمر الإغلاقات المرورية فتجهزت بسرعة وخرجت وكان الطريق سالكاً لأن الناس وزعوا أوقات خروجهم، فوصلت باكراً قبل مديرك.

في أي من السيناريوهين ستكون أكثر رضاً وأقل تذمراً؟

قد تبدو المشاركة المجتمعية مجرد حراك حكومي لإشراك الأفراد وتحقيق مستهدفات المشاركة المجتمعية.

لكن الحقيقة أن المشاركة المجتمعية التي تبدأ من المؤسسات الحكومية تنتهي بأن يشعر كل مواطن بأن هذه الحارة "حارتي" هذه المدينة "مدينتي" هذه البلاد "بلادي".

ولنعد إلى التعريفات، عرفت لجنة المشاركة المجتمعية التابعة لمركز السيطرة على الأمراض المشاركة المجتمعية بأنها " العمل التعاوني مع ومن خلال مجموعات من الأشخاص المرتبطين جغرافياً، أو تجمعهم مصلحة خاصة، أو مواقف مماثلة لمعالجة القضايا التي تؤثر على رفاهية هؤلاء الأشخاص. وهي وسيلة قوية لإحداث تغييرات بيئية وسلوكية من شأنها تحسين جودة حياة الأفراد. وغالبًا ما تنطوي على شراكات وتحالفات تساعد في حشد الموارد والتأثير على الأنظمة، وتغيير العلاقات بين الشركاء، وتعمل كمحفزات لتغيير السياسات والبرامج والممارسات". (CDC, 1997)

لمـاذا نـسعـى إلـى تـحـسـيـن حـيـاتـنـا؟

(ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِن بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ) (14)
(وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ) (165)

خلق الله الإنسان لا شيطاناً ولا ملاكاً، بل جعل له العقل وعلمه الأسماء وكرمه على جميع خلقه وأعطاه الأدوات وسخر له الأرض والسماء، ومنذ هبط آدم إلى الأرض وإلى اليوم. والبشرية تسعى إلى كسب عيشها وتحسين حياتها، ومنذ ذلك اليوم وإلى الآن والبشرية تتذبذب بين الصلاح والإفساد.

فإن كان من سبب أساسي للسعي إلى تجويد الحياة فهو أولاً: تحقيق معنى الاستخلاف في الأرض وألا نكون ممن يفسدون فيها كظن الملائكة الأول بالإنسان. ثم ثانياً: لأننا على هذه الأرض لسنا دائمين والموارد التي نستخدمها ليست ملكاً لنا، فغداً سيرث الأرض غيرنا فإذا لم نحسن الحياة اليوم فإن كثيراً من الخيرات قد تنضب، ولا نعرف أي مصير سيواجه اللاحقين. وثالثاً: لأننا نريد أن نحيا حياة صحية كريمة هانئة وكل ذلك لن يكون دون تكاتف اجتماعي لتحسين الطرق والمدن والعناية بالصحة العامة وتبني المبادرات الاجتماعية وتشييد أماكن للعبادة والرياضة والترفيه.

ورابعاً: لأن كل ذلك من تحقيق الاستخلاف واستدامة الموارد وعيش حياة هانئة وصحية لن يكون دون أن يدرك المرء دوره وينتمي للمكان الذي يحيا فيه.

قد يكون الانتماء هو الدافع الخفي؛ لأن نساهم في تحسين الأرض التي نعيش عليها والدافع لإزالة شوكة من الطريق وارتداء الكمامة لوقاية الآخرين، ومتى ما فُقد الانتماء فإننا نفقد الرغبة في التحسين وننكفئ على ذواتنا أو نفسد المجتمع ونخرق السفينة.

مـن الـقـراءة إلـى الـفـعـل:

في المرة القادمة حينما تتصل على خدمة العملاء أو تمر بجهاز تقييم خدمات المطار. انتظر قليلاً لا تغلق الخط لا تركض لتلحق الطائرة.

قيّم التجربة بصدق ثم امضِ. قد يكون هذا الفعل صغيراً جداً لكنه طريقة أولى لتدرك أن صوتك مسموع وأن تعليقك الذي كنت تقوله للكل دوناً عن المعني بالأمر قد يؤثر ويغير.

في المقال القادم سنتحدث أكثر عن دور المؤسسات بكل مستوياتها في تحقيق المشاركة المجتمعية، فإن كنت موظفاً في مؤسسة أو مؤسساً لشركة أو منخرطاً في أي شكل من أشكال العمل والتنمية. فالمقالة القادمة ستكون عنك بوصفك جزءاً من مؤسسة.

المـراجــع:

- https://pmc.ncbi.nlm.nih.gov/articles/PMC9819513/
- https://www.moh.gov.sa/Ministry/MediaCenter/Publications/Documents/Pandemic-documentation.pdf
- كتاب معنى الحياة في العصر الحديث لعبدالله الوهيبي.
- خبر مبادرة عزوة.

غـــدن
Ghadan